سليمان كشلاف

اقتلاع الجذور العفنة

الادب هو الصورة الصادقة عن المجتمع ، وهو الذي يحفظ خصائصه ويسجل حركته ليعطي الفكرة موجزة بعد ذلك يستطيع الانسان من خلالها أن يعرف ، وان يسجل ، وان يستنتج .

ولعل في الشعر العربي طيلة القرون الماضية جميع المقومات التي تعطينا صورة عن المجتمعات التي خرج من بينها الشاعر ليسجل مرحلة ، ويؤرخ من خلال حياته وحياة من معه حركة مجتمع ، فمن خلال اشعار الشعراء يستطيع الباحث أن يدرك الكثير ويعلم الاكثر عن الفترة الزمنية التي عاش فيها الشاعر ، عن الحياة الاجتماعية والنظم والعادات والقيم والديانة .. الى الكثير مما يمكّن من اخذ الصورة الكاملة من خلال الشعر العربي لمجموعه من الشعراء في فترة زمنية واحدة ، اذ تكتمل زوايا التسجيل وتلتقط الانطباعات من اكثر من عين وعقل ، كل منها يشكل جزءا من الصورة الرئيسية التي تكتمل بعد ذلك بتجميع الاستشهادات والاستدلالات .

واذا كان احد الباحثين (١) المحدثين قد استطاع من خلال رواية ساذجة هي « حديث عيسى بن هشام » أن يخرج بتفاصيل متكاملة عن النظام الاجتماعي والجوانب الاقتصادية والسياسية الى جانب الاجتماعية ، فلنلمس المظهر العلمي والقيم الدينية والمظهر الفكري لنخرج بصورة شبه متكاملة للمجتمع المصري ليس في عصر عيسى بن هشام فقط بل في عصر الباشا كذلك . فان المتتبع للنتاج الادبي يستطيع ان يخرج بالكثير .

ماذا اذن عن الادب الليبي ؟ ما الذي يمكن لنا أن نخرج به من خلال قراءتنا في الادب الليبي ؟

* * *

« الكرة » (٢) .. « العيد في الارض » .. (٣) « الجدار » (٤) .. و « الرمال الناعمة » (٥) اربع قصص ليبية قصيرة تحاول ان تسجل حدثا ، .. تبين موقفا وتعطي رأيا ، من وجهة نظر خاصة ، هي وجهة نظر الكاتب .

في « الكرة » (٦) يعالج (كامل حسن المقهور) وضعية الطفل عبدالله الذي يواجه بالرفض من كافة اطفال الشارع يتزعمهم ابن الحاج ، لان والدته مومس ، ينبعث هذا الاحتقار اساسا من امتلاك ابن الحاج لوسيلة استطاع ان يتزعم بها اطفال الشارع .

ان جميع الاطفال يعانون الفقر « في نفس الوقت الذي يتجمع فيه الصفاز في الوسعاية قريبا من الطريق المار بين الجبانتين .. قبل ان يمتد الشارع الكبير المرصوف الذي يصل الحي بالمدينة .. في نفس الوقت الذي يرجع فيه الكبار .. اناس كبار ضعاف .. متعبون .. عيونهم هامدة .. ارجلهم نقيلة .. وخطواتهم حائرة .. وفي ايديهم اشياء .. ارغفة خبز .. خضر من السوق .. وثيابهم ملطخة بآثار العمل . » ان جميع الاطفال ذوي مستوى اجتماعي واحد ، جميعهم يعيش حياة لا يعرف الترف اليها سبيلا ، الا ابن الحاج الذي يتميز عنهم بانه يملك وسيلة من اهم وسائل الترفيه والتسلية عند الاطفال .. كرة .

وبالرغم من ان الطفل عبدالله تمتلىء نفسه ألما لاعتقاده ان جميع من في الشارع يحتقرونه ولا يحبونه ، الا ان هناك ادراكا اكبر كان يتمائل لديه « كلمات قبيحة .. كانت دائما تلصق بأمه .. حتى النسوة كن دائما يشرن اليه ويقلن في غير حياء هذه الكلمة .. ولم يكن يصدق هذا الكلام .. فهو يحب أمه .. ويراها جميلة .. صغيرة .. على وجهها اصباغ لا تحلم بها نساء الحي .. وتعيش بعيدا عن جوهن الموبوء المملوء مشاحنات .. وعن التراب .. والجامع المتهدم .. والبيوت المنخفضة اللاصقة بالارض .. وكان يحبها جدا على الرغم من انها لا تسكن معه ولا مع جدته حيث يعيش .. ولم يكن يتصور ابدا ان هذه الانسانة الرحيمة الجميلة يمكن ان تكون ما يدعونه في الحي ، انه يكرههم لذلك .. انه يكره حتى شارعهم .. حتى اطفالهم »

هذا الادراك كان يرتفع عن تلك الاحساسات اليومية التي تخالجه .. ومن هنا فطن الى وسيلة الضغط التي يستخدمها ابن الحاج ليكسب اطفال الشارع الى جانبه ، الاطفال الذين يبحثون عن التسلية ، يقفون مع من يوفرها لهم دون احساس بما يشكله ذلك من اساءة ـ ولو كانت غير مقصودة ـ بالآخرين .

كانت كرة ابن الحاج هي وسيلة الضغط فتجمعت احلام عبدالله على ان تكون له كرة .. كرة جميلة وكبيرة ، اكبر من تلك التي يملكها ابن الحاج ، وعندما تأكد من قوة جانبه باستمالة بقية اطفال الشارع للعب معه هو بكرته الجديدة الكبيرة اصبح من حقه أن يقف في وجه ابن الحاج وان يرد له واحدة من الطعنات التي ظالما وجهها اليه « ـ نلعبو معاك يا عبدالله ..

فابتسم عبدالله ابتسامة مرحة ولمعت عيناه وقال :

ـ العبوا كلكم الا ابن الفاسدة .. هذا .. ما يلعبش معانا .. امي قالتلي ما نلعبش معاه .. وحينما هجم عليه ابن الحاج .. وقف الجميع دونه يدافعون عن عبدالله »

ان الكرامة التي اذلت كثيرا حان لها ان تأخذ دورها في الدفاع عن نفسها .

* * *

اذا كانت عملية الحوار تتم بين طرفي الصراع في (الكرة) فانها تغيب تماما في « العيد في الارض » (٧) ولا نلمس لها اي ضلال من خلال حوار يتدفق بين شخصيات تمثل طرفا واحدا ، لكن (عبدالله القويري) يحول ذلك الحوار المفتقد الى لغة سردية ووصف لما عليه كل من الطرفين ، في مكان السكن ، في نوعية الملابس ، في نوعية الاكل ، الى جانب العمل .. اسلوب التعامل ، والفرحة في مناسبة دينية هامة هي عيد الفطر ، كما تتغير النتيجة من اتخاذ نفس اسلوب الطرف الثاني في الصراع الى موقف اخر اشمل واعم لاجتثاث المشكلة من اساسها .

ذلك ان سالم توصل الى قناعة كاملة من خلال كافة الفوارق التي لاحظها ويلاحظها في كل ما يحيط بحياته ، في المسكن « استمرا في سيرهما حتى تركا البنايات الكبيرة خلفهما ، وبانت امام عينيهما اطراف المدينة ، حيث تقبع الاكواخ وسط اكوام من المهملات وبقايا الحرب الماضية من اسلاك وبراميل قديمة » والماكل ..

« وانتشرت في الجو رائحة الثوم والبصل واللحم ، ودخلت الى انف عيسى ، فحاول ان يقارنها بما تخلل انفه اثناء سيره في الشوارع الواسعة ، فادرك ان الفرق غير مرئي .. ومصمص شفتيه وسكت » .واسلوب الحياة « حتى المقاهي قد خلت من روادها في هذا اليوم ، ورأى لهذا اليوم عند كل الناس تمييزا ، كما تميز عنده ايضا ولكن ليس كبقية الناس الصغار ، ومن ان له ان يكون مثلهم .. وبأي شيء ؟ هو لا يعرف من امر حياته سوى انه يملك هذه القروش التي يتاجر بها ، فيشتري صندوق حلوى ثم يدور به ليبيعه ، فيكسب قرشين او ثلاثة يعرف ان يأكل بهما حتى اذا جاء الليل أوى الى ذلك المكان خارج المدينة ، حيث خرقه البالية ، وقد حشدها في ركن حائط قديم متهدم ، فيلتف بها ، ويلقي بجسده في ذلك المكان المظلم فلا يصحو الا عند الفجر على أصوات العربات تقطع ذلك الطريق البعيد فيسرع آخذا صندوقه وما تبقى فيه من بضاعة ويسير متمهلا وعيناه ما زال يغلقهما النوم ، وجسده وقد رضه هواء الليل البارد ، الذي نفذ الى جلده من خلال الخروق التي تغطي بها .. ويتغلب على خموله رويدا رويدا .. ويسير ، ثم يقفز خلال الازقة حتى يصل الشوارع الواسعة ، فيرفع صوته بالنداء على بضاعته بادئا يوما جديدا » .

ومن خلال هذه التفاصيل التي يقدمها القصاص يمكن لنا ان نلمس تلك الازمة النفسية التي يعيشها عيسى بين واقع يعيشه ومثل طيب يعيش في خياله من خلال وصايا دينية « ـ هيا ياخوي ..

وتفادي تأزم الموقف بأن سار معه وانبثقت من فمه كلمة ...

ـ انا مسكين

ونظر اليه سالم ولم يقل شيئا . فعاد يردد :

ـ راقد ريح .

ولم يجبه سالم بشيء ، وكان يسبقه بخطوات ، فأسرع عيسى ليلحق به متسائلا :

ـ حق .. عيدنا في السما .. المساكين كيفنا ؟

ـ وانت مسكين ؟

ـ ومين عندي ؟

ـ عندك نفسك ؟

ـ نفسي اليوم جوعانة .. في يوم العيد ، حتى شيء ما عندي .. ثلاث قروش .. هاه » الا ان الفكرة تتبلور في النهاية لتصبح ادراكا كاملا بتعمق ويتعمق ليصبح مناداة بدعوة ومن خلال الاصرار على تحقيقها يتم تحقيق العمل الشامل .

* * *

اذا كان من يكتوون بالنار في (الكرة) و (العيد في الارض) قد وجدوا انفسهم هكذا ، في وضع اجتماعي سيىء لا ذنب لهم في صنعه ولا في صنع رواسبه فان (يوسف الشريف) في (الجدار)(٨) يعطي للمشكلة وضعا آخر حين يضع وجها لوجه ، من صنع هذا الوضع ، ومن احس به وحاول مقاومته ، ثم رفضه .

ان البداية في صنع هذا الوضع على المستوى الضيق ، ومستوى الشارع كان خطأ من مفتاح « حدث ذلك منذ شهور .. عندما بدأ عمله بوظيفته الجديدة .. وعندما سكت على شيء ما حدث في المصلحة التي يعمل بها وكافأه المدير بترقيته الى الدرجة الثالثة .. منذ ذلك اليوم بدأ الجدار الاسود يعلو ويعلو حتى يتمثل انه سجين زنزانة لا سبيل للفرار منها » .

وكان من الممكن ان يتغاضى الانسان عن تلك الغلطة لوجود رابط عميق في الوجدان بين مفتاح ومجموعة الدكان الا ان الترقية والمنصب الجديدين خلفا شيئا آخر في نفس مفتاح « عندما ذهب الى المصلحة التي يعمل بها مفتاح وطلب مقابلته .. الا ان المباشر طرده بحجة ان السيد مفتاح مشغول .. »

ازدادت التراكمات في علو ذلك الجدار بين الطرفين. شراء السيارة . الانتقال الى مسكن جديد في حي راق . ثم الانقطاع عن مواصلة رفقاء العمر .

لذلك فعندما قام مفتاح بزيارة اصدقائه وشارعه القديم بعد فترة انقطاع وجد تلك التراكمات قد خلقت الجدار المصلب ، ووجه بالرفض ممن كانوا خلصاءه بالامس كرد فعل على جميع اخطائه المتتالية والتي لم يراع في اي منها حق عشرة او صداقة .

والرفض هنا يتم عن وعي ، كما انه يتم بموقف واحد من كافة مجموعة الدكان ، عندما حلت لحظة المواجهة ، واظهار ما في اعماق كل منهم ، وهو رفض ينبيء عن استنكار واضح لسلوك انتهازي ، وينبيء عن لحظة مواجهة اكبر واشمل ، ليس مع مفتاح وحده ولكن مع كل ما يمثله كنموذج سيىء يجب ان يتوقف عند حد معين من ممارساته القذرة .

* * *

في « الرمال الناعمة » (٩) يلجأ (احمد ابراهيم الفقيه) الى المواجهة بين الطرفين كما فعل (يوسف الشريف) ، لكن الموقف يضيع تماما من يد القصاص ، بل يصبح انهزاما للانسان من الداخل.

اننا نلتقي مع مواجهة غير مرتبة اصلا مع محمود ، المناضل القديم الذي يبدأ القصاص في اعطائنا معلومات عنه « كان يتقدمنا دائما .. شهما ، صريحا يتقد توهجا يتسامح مع كل من اخطأ في حقه ، لكنه لم يكن يتسامح ابدا مع من تهاون في حق وطنه ، حتى في ارض الغربة عندما كنا نواصل دراستنا كان الوطن يملأ وجداننا فيجمعنا لنؤسس نادي باسم بلادنا ، ويملأ قاعات الدراسة بالحديث عن وطنه ويطوف بنا بين الصحف علها تنشر المعلومات التي نقدمها لها عن بلادنا .. بعد ان تخرجنا اصر بعضهم على ان يثري باسرع الطرق كان محمود وحده الذي ما كان حرصه في يوم من الايام على ان يكون له بيت فاخر وسيارة فاخرة وارصدة في المصارف كان يختار زبائن بسطاء مسحوقين بالكاد يتحصل على مصاريف مكتبه وقوته الضروري ولم ادر ما هو رد الفعل الذي حدث في نفس محمود حتى جعله يترك مهنته القديمة ويصبح رجلا من رجال الاعمال ، ومرت سنوات وهو في مدينة .. وانا في مدينة اخرى .. اسمع اخباره ، لكنني لم التق به .. »

كان محمود ، وما ذلك المناضل القدوة ، وكان المثال الذي يحتذى « كان دائما يملأ فكري ، حتى في عملي كانت شخصية محمود هي التي تملأ ذهني ، وتقود خطاي وظالما تهيأت الى يوم التقى

فيه بمحمود اسرد امامه همومي وأضيء بروحه وكلماته بعضا من ضباب الطريق » .

وسقط المناضل ، سقط في غفلة عمن اتخذوه قدوة ، وكما كان سقوطه مفاجئا لمن زامله وعاش مع افكاره زمنا ،حتى انه لم يعرفه في بداية الامر عندما التقى به بعد غياب ، تغيرت اليه النظرة فجاة ايضا « فتشت في عينيه فلم اجده . لم تكن هي عيناه . اين توهج محمود وومضته الكاشفة الحارقة عندما ينظر اليك من هذين القنديلين المطفأين .

وعندما ابتسم .. لم تكن هي ابتسامة محمود القديمه ، كانت ابتسامته المشهورة التي تشرق في وجهك ، فتحس بها طازجة ساخنة كانفاسه ، لقد اختفت ، حلت مكانها مساحة بيضاء تظهر وتختفي دون مبرر لظهورها واختفائها ، واحسست بابتسامته باردة ، لزجة، تسيل على وجهي ويدي وقدمي ، حتى اشعرتني بالاشمئزاز » .

هذا التغير في الاحساس لم يصحبه اطلاقا موقف صارم ثابت ، بل تبعه احساس بالهزيمة ، ليس على مستوى العلاقة القديمة بين بطل القصة ومحمود فقط ، بل ايضا في اعماق محمود « عندما ودعني ومضى يبتلعه الزحام ، وقفت تائها مرزوءا ، احسست بخيبة لم احس بها طوال عمري تحط في نفسي وتملأها ، حتى كدت اجهش بالبكاء وسط الشارع .. ولم ادر لماذا كنت احس كان محمود كان رفيق سفري الوحيد ثم مات عني ..ابتلعته رمال ناعمة ، وبتاضرب في المتاهة وحدي .. كنت خائفا مذعورا . تحول الرصيف تحت قدماي الى شيء رطب لزج ناعم .. كانه الرمال الناعمة .. وكنت امتلىء خوفا من ان تمتصني الرمال الناعمة » .

انه العجز وفقدان الثقة حتى في النفس عند (احمد ابراهيم الفقيه) .

* * *

ما الذي يمكن لنا ان نخرج به من خلال هذه القصص الاربع التي يربطها محور واحد ، لقصاصين تختلف اعمارهم .. يختلف امتلاكهم لاسلوب العرض الفني .. تتعدد مصادر ثقافتهم .. تختلف نظراتهم الى الحياة والمجتمع ، ويختلف موقفهم منها .. ويختلفايضا زمن كتابة كل منهم لقصته فتمتد المسافة الزمنية لما يقارب الخمسة عشر عاما بين (الكرة) و (الرمال الناعمة) داخل مجتمع لا تثبت حركته ، يضاعف اكتشاف النفط في ليبيا من سرعة حركته من مجتمع العشيرة الى مجتمع المدينة ..

ما الذي يمكن لنا ان نخرج به من خلال هذه القصص ؟..

ان الظواهر العامة تجتمع في عدة نقاط رئيسية نلحظها سريعا .. فوجود طرفي صراع في كل قصة ينبثق منه الحدث هو الظاهرة الرئيسية ، ويتمثل هذا الصراع في طرفين ، يتخذ موقفا جمعيا تارة وموقفا فرديا تارة اخرى .. فابن الحاج يقابله عبدالله (الكرة) عيسى وصديقه يقابلهم الطرف الغائب ، سكان العمارات والمنازل (العيد في الارض) مفتاح يقابله سليمان وجماعة الدكان(الجدار) ثم محمود .. ويقابله راوي القصة (الرمال الناعمة) .

ومن خلال هذا التقابل يبرز وضع اجتماعي معين يحكم علاقة الاطراف جميعا . امتياز ابن الحاج بامتلاكه للكرة .. امتلاك سكان المنازل والعمارات لوسائل الحياة النظيفة والعيشة الميسرة ، ثم انتقال مفتاح ومحمود من وضع الى اخر افضل منه ، سواء في المنصب او السكن او عيشة الرفاهية ، بعد ان انسلخوا من ارتباطاتهم الوجدانية والفكرية القديمة .

وتاتي مرحلة الانتباه لتبدأ في تفجير الصراع ، ان الاطراف المظلومة هنا تفيق في لحظة معينة الى ما تعانيه من فقدان للكرامة او سوء العيش وتبدأ مرحلة الموقف والدعوة الى التغيير في العلاقة بين الطرفين ، من ظالم ومظلوم ، من حياة رفاهية وحياة بؤس، من العيش داخل نطاق الزمن والعيش خارجه ، الى علاقة جديدة مبنية على الكرامة وعلى توفير سبل العيش ، بشرف وعفة ، في جو تكون فيه القدرات والكفاءة هي المحك لبروز اي شخص في المجتمع الجديد النظيف .

وتكون نهاية الصراع هي الموقف النهائي للكاتب ، والتي يبدأ بعدها الاطراف علاقتهم الاجتماعية من جديد وفق اسس عادلة وفرص متاحة للجميع ، فعلى حين تكون دعوة (كامل المقهور) لبناء المجتمع الجديد استخدام نفس الوسيلة التي يلجأ اليها الطرف الاخر للانتصار عليه ، يدعو (عبدالله القويري) الى الثورة الشاملة وتحقيق مجتمع التكافل والعدل بتغيير فكر المجتمع اولا ، وبينما يرفض (يوسف الشريف) النموذج الفذ ويدعو لمقاومته وافلاع جذوره ، يسقط (احمد ابراهيم الفقيه) وتظهر نماذجه متخاذلة تنقلب من النضال السياسي الى الكفر بالمثل والعمل بنقيضها ، ويعجز البطل في قصته حتى عن حماية نفسه من السقوط في الهاوية التي انحدر اليها زميله القديم .

وعلى حين يستخدم كل من (كامل المقهور) و (عبدالله القويري) الاطفال ابطالا لقصصهم على اعتبار ان الفترة التي يمثلونها (الخمسينات) هي نتيجة لممارسات الجيل السابق ، يستخدم (يوسف الشريف) و (احمد ابراهيم الفقيه) الشبان ابطالا لقصصهم لان هذا الجيل (الستينات) هو جيلنا نحن ، وان اي ممارسات منحرفه هي حصاد لاعمالنا ونتاج لفكرنا ، يجب ان نتحمل نحن مردوداته ونكون على استعداد لتحمل كل ما ينتج عنه اذا لم يكن الرفض والتحدي لكل منحرف واجبنا الرئيسي .

لقد قال جيل الخمسينات والستينات رأيه ، فما هو رأي جيل السبعينات ؟..

طرابلس (ج.ع.ل) سليمان كشلاف

هوامش :

١ ــ محمد رشيد ثابت / البنية القصصية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام / منشورات الدار العربية للكتاب / ط / ١ / ١٩٧٦ .

٢ ــ كامل حسن المقهور ١٤ قصة من مدينتي / دار النشر الليبية / ط ١ / ١٩٦٥ م .

٣ ــ عبدالله القويري / العيد في الارض / منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع ببيروت / ط ١ / ١٩٦٣ م .

٤ ــ يوسف الشريف / الجدار / منشورات اللجنة العليا لرعاية الفنون الاداب / ط ١/ ١٩٦٦ م .

٦ ــ كتب كامل المقهور قصة (الكرة) سنة ١٩٥٤ م .

٧ ــ كتب عبدالله القويري قصة (العيد في الارض)سنة١٩٥٧م.

٨ ــ كتب يوسف الشريف قصة (الجدار) سنة ١٩٦٣ م .

٩ ــ نشرت قصة (الرمال الناعمة) في مجلة الرواد / السنة الثانية / العدد ١١ / نوفمبر ١٩٦٦ م .